

اللغة والأمن الثقافي في المجتمعات العربية

د. كمال حامد عبد الله، جامعة بحري، السودان.

ملخص

تناول البحث موضوع اللغة والأمن الثقافي في الوطن العربي وقد هدف البحث إلى عرض التحديات التي تواجه اللغة العربية والتي تتمثل في جملة أسباب أهمها العولمة وأثرها في فرض الثقافة الغربية، وفي المقابل هناك عدة حلول من أهمها مواجهة العولمة والإنفاذ من إيجابياتها وأدواتها، وقد اتبع البحث المنهج الوصفي والتحليلي. أما أهم النتائج فتتمثل في:

- أن الذاتية هي الشرط الحتمي لتقدم الأفراد والجماعات والأمم، لأنها هي التي تحرك الإرادة الجماعية وتشكل أساسها.
- صمود العربية أمام العواصف العاتية التي مرت بها عبر التاريخ، بدعوى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب.
- احتمال تزايد الوزن الحضاري للغة العربية في المستقبل المنظور فضلاً عن المستقبل البعيد.

Abstract

The research investigated the language concern and the cultural security in the Arab world. The research aimed at viewing the challenges facing Arabic language. Arabic is described as the basic core of the cultural and identity of Arabian Nation. The challenges could be represented in many reasons. The most important challenge is the globalization and its impact in imposition of Western culture through English language tool. In contrast there are several solutions; the most important one, is to face the globalization taking its positives and tools. The research followed the descriptive and analytical approach. The most important results of the research are:

- Subjectivity is the inevitable condition for the progress of individuals, groups and nations, for it driven the collective will and represents its ground.
- All languages are equalized in difficulty and simplicity.
- Arabic language has withstood against raging that passed throughout the history. Through claims which appear compassionate but interiorly are torments.
- The possibility of increasing the cultural weight of Arabic language in the short and long run.

اللغة ملكة اللسان⁽¹⁾ وهى أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم⁽²⁾ وهى المعبر الحقيقى لثقافات الأمم، واللغة بلا شك هى المحور الجوهرى فى منظومة الثقافة لارتباطها بالفكر والإبداع والتراث والقيم والمعتقدات ومن هنا يكتسب اللسان العربى أهمية كبرى فى الحفاظ على الخصوصيات الثقافية الأصلية فى مواجهة التيارات الوافدة وهذا مايعبر عنه اليوم بالأمن الثقافى .

لما كانت العربية هى رأس الرمح الثقافى وأداة الذود عن هوية المجتمع العربى والإسلامى فقد لاقت أهوالاً ومصاعبَ جمّة من الغرباء ومن ذوى القربى ، وواقعها اليوم لايسر . كما لا يخفى . فكيف السبيل إلى النجاة ؟ ، وقد جاء هذا البحث مجيباً عن هذا السؤال الذى دار فى خلد كثير من الغُير على لسان العرب وماآل إليه .

تحديات اللغة العربية: واقع اللغة العربية اليوم لايسر، فقد تضافرت عوامل كثيرة، أثرت فى تدهورها، ويمكن تلخيص تلك المعضلات فى النقاط الآتية :

1 / دور المستشرقين وبعض العرب فى محاربة العربية :

لما كان من أهداف المستعمر فى بلاد العرب طمس معالم الإسلام ؛ لم يفلح فى ذلك فعمد إلى محاربة العربية ؛ لأنها روح الإسلام وأداته ومن ثم أوكلت هذه المهمة الخطيرة إلى أرباب الكنائس والمستشرقين الذين تدرجوا فى تنفيذها بذكاء ومكر شديدين حتى أوقعوا وأوهموا كثيراً من الناس لاسيما العلماء والأدباء والشعراء ؛ مما كان له أثر فعال فى هدم صرح العربية ومن ذلك مثلاً :

أ / الطعن فى لغة قريش والتشكيك فى مصادر الشعر الجاهلي.⁽³⁾

ب / تأليف دوائر المعارف وأشهرها : دائرة المعارف الإسلامية لكبار المستشرقين وألفت بعدة لغات ، ولا يخفى مااحتوته من دسائس وترهات وللأسف صارت مرجعاً لكثير من المسلمين بل استطاع المستشرقون أن يتسللوا ، بوصفهم أعضاء فى مجامع اللغة العربية فى مصر وبغداد ودمشق .

د / دعوات تيسير النحو العربى تحت مسميات مختلفة ومن الغرائب أن اتحاد النساء بمصر قدم طلباً إلى مجمع اللغة العربية بحذف نون النسوة من اللغة العربية ليتساوين مع الرجال.⁽⁴⁾

هـ / الغارة على العربية بواسطة الحداثيين ، والحداثيّة عبارة عن حركة شعريّة من إفرازات المدنية الغربيّة و من أهم سماتها وجوب ترك الماضى والعمل على التخلص منه بل معاداته⁽⁵⁾، وانهم عدد كبير من أدباء العربية بهذه الحركة الشعرية ومنهم على سبيل المثال : أحمد زكى أبوشادي ونزار قباني والبياتي وصالح عبد الصبور وأدونيس وسعيد

عقل الذى كتب بعض دوواينه بالحرف اللاتيني⁽⁶⁾، وقد انتهى بنا الأمر إلى الارتقاء في أحضان الثقافة الغربية ومنجزات العقل الغربى دون تمحيص أوترو لكن المهم أن الرغبة في التحديث ترتبط عادة بشعور بالدونية في مواجهة الآخر الثقافى⁽⁷⁾، وقد سوغوا لهذه الشبهات بعض التبريرات منها أن :

- العامية سهلة وغنية في النطق والكتابة ، وهى وسيلة حية من وسائل النهوض والتطور .
- الفصحى أماتت في العرب قوة الإبداع والاختراع .
- العربية الفصحى كثيرة المفردات ومعقدة القواعد ولا سيما ماتعلق منها بالإعراب .

وواضح أن هذه التبريرات لا تصمد أمام المنهج العلمى ، ويجدر هنا طرح عدة أسئلة وهى : أى عامية تمثل العربية الفصحى ؟ أعامية الشام أم مصر أم السودان أم المغرب العربى أم الخليج العربى ؟ وكم عدد اللهجات في القطر العربى الواحد ؟ وكيف يكون ذلك أداة للتواصل بين الشعوب ؟ وأخيراً كيف لنا أن نختار لهجة ما لإنطاق الحاسوب بها في مشروعات انطلاق النصوص ؟ وأما قولهم : إن الفصحى كانت حجر عثرة أمام الإبداع والاختراع فهذا مناف لطبيعة الأشياء ، فما دخل اللغة في تطور أم تخلف الشعوب وهل تفوقت اسرائيل بسبب لغتها العبرية التى كادت أن تموت لولا الجهود التى بذلت لإحيائها ، وأما كثرة المفردات فهى باب غنى لا فقر وأما صعوبة القواعد فإنه إدعاء مخالف لما استقرت عليه الأعراف اللسانية؛ أن اللغات جميعاً تتساوى صعوبة وسهولة.⁽⁸⁾

2 / التعليــــــــــــــــم :

مهددات العملية التعليمية : أصبحت المعرفة من أهم مكونات رأس المال في العصر الحالي، وأصبح تقدم أي مجتمع مرتبطاً أساساً بالقدرة على استخدامها⁽⁹⁾. ويعد المعلم رأس المال الحقيقي في مجتمع المعرفة، وهو المحور الجوهرى في العملية التعليمية، لكن لقد تبدل الحال وانكسر خاطره بإهمال دوره الخطير ، فهجر مهنته إلى بدائل أخرى لعلها تحفظ ماء وجهه ، وأضحى التعليم مهنة من لا مهنة له، وهنالك ضعف كما لا يخفى في مستويات اللغة العربية في وطننا العربى ، وقد بادرت وزارة التعليم العالى بالسودان بتكوين لجنة لدراسة أسباب تدنى مستوى اللغة العربية في مدارس التربية والتعليم ولاحظت الآتي:⁽¹⁰⁾

ضعف فهم معاني المفردات والجمل، التعثر في القراءة والحديث، عدم القدرة على النطق السليم ، رداءة الوقف والتنغيم، عدم القدرة على التعبير بلغة عربية سليمة في ترابط وإحكام في الحديث والكتابة، طغيان العامية على اللغة المكتوبة والمنطوقة، الضعف في توظيف علامات الإعراب . عدم القدرة على استخدام المعاجم .

وقد أرجعت اللجنة أسباب التذني إلى : اتخاذ العامية وسيلة للتدريس بدلاً من الفصحى ، التركيز على المعلومات عن اللغة أكثر من التدريب على المهارات ، بعد المنهج عن واقع الطلاب ، وعدم مواكبته للتطور العلمي والتقني.

وهناك عوائق أخرى أدت أيضاً إلى تدهور أوضاع العربية منها : مايتعلق بالمنهاج التعليمية ، بوجه عام ؛ سواء أكانت في الأساس أم الثانوي أم الجامعي ، فالطفل مثلاً يتعلم الإنجليزية بجانب لغته العربية في سن مبكرة ولا يخفى أثر ذلك على لغته وهويته وهذا يتنافى أيضاً مع الأسس التربوية السليمة ، وهناك أيضاً ما أضر العربية بطريقة غير مباشرة تتمثل في جعل النحو غاية بل هو وسيلة لإدراك المعاني ، وقد أحسن ابن خلدون في تصوير هذه الحالة بقوله (ولذلك نجد كثيراً من جهابذة النحو والمهرة في صناعة العربية ، المحيطين علماً بهذه القوانين ، إذا سئل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذوى مودته ، أو شكوى ظلامة ، أو قصد من قصوده خطأ فيها عن الصواب وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي)⁽¹¹⁾ ، والطريف في ذلك أن الشاعر السوداني التجاني يوسف بشير .رحمه الله . قد اشتكى هو أيضاً من ذلك فقال:⁽¹²⁾

ولقيت من عنت الزبود مشاكلاً ❖ وبكيت من عمرو ومن إعرابه

ومن هذا الباب طفق بعض المخدوعين بإثارة دعاوى مغرضة بصعوبة العربية لصعوبة قواعدها . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، هل الخلل كامن في المنهج ؟ أم في المادة نفسها ؟ والذي يظهر أن الخلل كامن فيهما ، فمن أسباب صعوبة النحو وغموض مسائله:⁽¹³⁾

1 / مايتعلق بمنهج النحو نفسه الذي وضعه العلماء ومما يؤخذ عليهم في ذلك : مثلاً : أ / الأخذ عن بعض القبائل دون بعض حيث نتج عنه تعدد الآراء النحوية في المسألة الواحدة . وهذه الشروح التي بين أيدينا شاهد على ذلك ، كالكافية للرضي والمفصل لابن يعيش وأوضح المسالك لابن هشام .

ب / تشدد البصريين في القياس وترخص الكوفيين فيه هذا فضلاً عن الغموض الذي اكتنف بعض المصطلحات المتعلقة بالقياس ؛ كالشاذ والقليل والنادر والغالب والمطرّد ، فهي غامضة الدلالة مهمة الكمية ، وقد أدى هذا إلى اضطراب في القياس ومن ثم تعقيد قواعد النحو .

ج / تأثر الدرس النحوي بالفلسفة : لقد اختلف العلماء في ذلك فمنهم من أقر تأثر النحو بلوثة الأعاجم ومنهم من نفى ذلك ، ولاينكر الباحث تأثر النحو بالفلسفة بعد نضجه واكتماله وآراء الرماني والفراء وغيرهما من المعتزلة خير شاهد على ذلك ، وهذا بدوره

أقعد النحو وأصابه في مقتل ؛ ما حدا ببعض المغرضين أن يرمي النحو بما فيه وبما ليس فيه ظلماً وعدواناً ، وقد نتج عن هذا التأثير ، غلو النحاة في التعليل والإفراط في القياس والإلحاح في تطبيق نظرية العامل ؛ مما كان له الأثر السالب على النحو والاستطراد في هذه المسألة قد يخرج الباحث عن دائرة البحث وحسب القلادة ما أحاطت بالجيد.

3 / أزمة الإعلام : تفيد وسائل الاتصال في نقل المعنى وتوجيهه ، فهي ليست مركبات من أحرف أو رموز اصطلاحية حسب ، بل إنها تسهم في رسم تصوراتنا عن العالم والوجود.⁽¹⁴⁾ والكلمة تسمع أو تنطق تترك في أثرها مجموعــــــــــــة من الانطباعات في ذهن كل من المتكلم والسامع ، ويشترك فيها الأول بطريق إيجابي ، في وسائل الإعلام خاصة ، بوصفه بادئاً بالاتصال ، والثاني بطريق سلبي بوصفه مستقبلاً.⁽¹⁵⁾

4 / أثر العولمة في إقصاء العربية : العولمة تعني انفتاح العالم على بعضه بعضاً في التجارة والاقتصاد والسياسة والإعلام والثقافة دون قيود ولا حدود ولا حواجز⁽¹⁶⁾ ، وقد بدأت العولمة أول الأمر ظاهرة اقتصادية لكنها سرعان ما تغولت في السياسة والاجتماع والثقافة ، وما يهمني هنا دراسة آثارها التربوية والثقافية ، فقد استطاعت أمريكا أن تنفرد بقيادة العالم ، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي ، فدعمت العلم والعلماء ونتج عن ذلك اختراع الحاسوب ذلك الصندوق الساحر العجيب الذي جعل العالم قرية صغيرة من خلال شبكة المعلومات (الشبكة) ، وكانت أدواته ولسانه اللغة الإنجليزية وخلق لها أوضاعاً لم تكن تحلم بها في يوم من الأيام . إن كل لغات العالم تخسر تقريباً كل يوم أرضاً ومناطق نفوذ لصالح الإنجليزية ، إنها إحدى النتائج المباشرة لظاهرة العولمة التي يفرض فيها القوي على الضعيف ثقافته ومناهج حياته ورؤاه ، وهذا كله في لغة قوية مسيطرة تنقرض في مقابلها لغات للمجموعات العرقية الصغيرة هنا وهناك ، ما يدفع الأمم المتحدة إلى وضع برامج للمحافظة على لغات العالم ووقف هذه المأساة ولو إلى حين ، لكن رياح العولمة أقوى من محاولات مؤسسة صنعها ويديرها الكبار لمصالحهم قبل كل شيء .

إن نصيب لغتنا في هذا كله . على المدى المنظور سيكون بلا ريب على غير ما يهواه أهل الغيرة على الدين واللغة من أبناء هذه الأمة⁽¹⁷⁾ . إن لغتنا كذلك تخسر كل يوم أرضاً ومتحدثين ومتعاملين لصالح الإنجليزية ، في جامعاتنا ومدارسنا ومتاجرنا ومصارفنا...والحقيقة إن القوة العسكرية والنفوذ السياسي والانجاز العلمي والرقى الفكري يعد من أهم الأسباب التي جعلت الإنجليزية لغة عالمية .

ومما يجدر ذكره هنا أن استشعار خطر هيمنة الإنجليزية ليس قاصراً على العرب ، إذ إن كثيراً من الشعوب تستشعر هذا الخطر ولعل فرنسا تكون أول الدول مقاومة للإنجليزية وهيمنتها فقد شرعت كثيراً من القوانين التي تهدف إلى حماية اللغة الفرنسية

من سطوة الإنجليزية، بل إن الدولة حظرت استعمال الإنجليزية في معظم مجالات الحياة الفرنسية، كالإعلانات والاجتماعات العامة، والندوات⁽¹⁸⁾، هذا وتتمثل هيمنة الإنجليزية في الوطن العربي في عوامل عدة، أهمها: استخدام لغة رئيسة في برامج الحاسوب والشابكة، عدّ الإنجليزية اللغة الأولى في النظم التعليمية حتى في البلدان العربية التي احتلتها فرنسا، تعليمها في مراحل الطفولة المبكرة، استخدام لغة رئيسة في التعليم الجامعي لاسيما في المساقات العلمية، اشتراط نشر البحوث العلمية بالإنجليزية في أكثر المجالات العلمية، اشتراط إتقانها في كثير من الإعلانات لشغل الوظائف المرموقة، كتابة لافتات المحال التجارية باللغة الإنجليزية، الإعلانات الصحفية، الكتابة على البضائع المحلية، التراسل بين الأصدقاء، كل ذلك بالإنجليزية ولم تسلم من ذلك حتى الأطعمة والملبوسات.

وفيما يلي إحصائية تبين غلبة الإنجليزية في مجال الإعلام:⁽¹⁹⁾

65% من برامج الإذاعة باللغة الإنجليزية، 70% من الأفلام منتجة بالإنجليزية 90% من الوثائق المختزنة في الإنترنت بالإنجليزية.

هذه الإحصائية نشرت سنة 1999م، وقد تراجعت بفعل تقادم الأزمان، لكنها بطريقة أو بأخرى تنبه على الأخطار المحيطة بالعربية في زمن الغفلة والتبعية إثر سنن الأمم الغالبة!

وقد أخذت العولمة السائدة تُفضي بالضرورة إلى سيادة لغة من لغات هذه الدول المهيمنة في العلاقات التجارية والاقتصادية، ومايستتبع ذلك من سيادة ثقافتها وقيمها الخاصة، إن معنى ذلك هو تهميش اللغات والثقافات القومية واحتواؤها⁽²⁰⁾، إن لغتنا في أزمة جديدة بفعل التكنولوجيا المعلوماتية، وذلك لندرة علمائنا المخصّصين في هذا المجال الحيوي وقد أثار أحد الغُير على وضع العربية. هذه المعضلة. مهندس الطيران، ألا وهو الدكتور نبيل على الذي قال محذراً⁽²¹⁾ (إننا نشكو من أزمة لغوية حادة تلتطخ جبيننا الحضاري، أزمة على جميع الصعد تنظيراً وتعليماً ...)، وليس بالضرورة أن يتحقق التطور العلمي من خلال التشبث بالإنجليزية؛ فقد نهضت كثير من الدول بلغاتها الوطنية كاليابان والصين وإسرائيل، وبالجملية فإن أي حضارة يمكن أن تزدهر بأي لسان، وها هي الإنجليزية بدأت تتراجع أمام اللغات المحلية في (الشابكة) أو الإنترنت، بل لم تتوقف حركة الترجمة من الإنجليزية. على قلبها. إلى لغات شعوب العالم المختلفة، ما حدا بالأديب الإسباني كاميليو سيللا الحائز على جائزة نوبل للأدب أن يقول (إن لغات العالم تتجه إلى التناقص وأنه لم يبق إلا أربع لغات قادرة على الحضور العالمي، هذه اللغات هي: الإنجليزية والإسبانية والعربية والصينية)⁽²²⁾ وقد بنى كاميليو رأيه

على استشراف المستقبل الذي ينطلق من الدراسات اللسانية التي تعين موت اللغات وتقهرها واندثارها.

وخير ما يقال في هذا الصدد ما أورده عبدالسلام المسدي بقوله: (وقد تشكل اللغة العربية في طموحاتها المستقبلية أخطاراً حقيقية على دعاة العولمة الثقافية وسياساتهم التهميشية ، وذلك مردود إلى جملة أسباب)، منها: ⁽²³⁾

احتمال تزايد الوزن الحضاري للغة العربية في المستقبل المنظور فضلاً عن المستقبل البعيد ... فاللسان العربي هو اللغة القومية لحوالي أكثر من 270 مليوناً وهو يمثل إلى جانب ذلك مرجعية اعتبارية لأكثر من 850 مليون مسلم غير عربي كلهم يتوقعون إلى اكتساب اللغة العربية ، فإن لم يتقنوها لأنها ليست لغتهم القومية فإنهم في أضعف الإيمان يناصرونها ويحتمون بأنموذجها.

6 / الترجمة والتعريب:

لقد نشأت أكبر حركة للترجمة عرفها العالم قبل . مطلع النهضة الحديثة . إبان الخلفاء العباسيين ، فاستفادوا من علوم اليونان والفرس والروم والهند وغيرها ، ولم يدُر بخلد هؤلاء أن يدرسوا تلك العلوم أو يتعلموها بلغاتها الأصلية ، بل لم يستقدموا علماء من تلك البلاد لتدريسها في بلاد الإسلام والعرب ، كما نفعل نحن اليوم ، فكان من أجل أثر لهذا السلوك ؛ أن المعرفة ليست حكراً على فئة محددة ، بل ظلت دولة بين الناس ، وهذا ما يحمدهم لأسلافنا ، فكان سبباً مباشراً لإزدهار الدولة الإسلامية آنئذ على جميع الصُّعد ، وبهذا يمكن أن تكون الترجمة عامل نمو وتطور تكتسبه العربية ، وفي هذا الصدد خياران لاثالث لهما وهما :

الأول: إما أن ندرس علوم الغرب بلغاته ، كما يرى ذلك مؤيدو هذه الفكرة ، ودليلهم على ذلك أن هذا يجعلنا مواكبين لعصرنا والتي تتوارد فيه المعرفة بسرعة فائقة.

الثاني: أن نقوم بترجمة علوم الغرب ثم تدريسها في وطننا العربي .

ويمكن مناقشة هذين الخيارين دون أن تكون هنالك نتيجة مسبقة عن إحداهما ، فالعمل بالخيار.

الأول: يوطن لفكرة النخبوية ولا تكون المعرفة شائعة بين الناس ولهذا تكون حبيسة في أطر ضيقة لاتنمو ولا تتجدد مادامت متفوقة ، أضف إلى ذلك أن الأستاذ . والحالة هذه يكون مالكا لخاصية المحاضرة ويكون الطالب متلقياً فقط وبهذا يبرز الجانب السلبي للعملية التعليمية إذ تفتقد إلى الحيوية والنشاط ، وهذا فضلاً عن الملل الذي ينتاب الطالب والرجل الذي يمنعه عن السؤال أمام زملائه ولا شك أن هذا يتعارض مع نظريات

التعلم كما لا يخفى ، وسرعان ما يقفز في أذهاننا سؤال مفاده : لماذا لا تنتج المعرفة بلغتنا مادام غيرنا يفعل ذلك بل استطاعوا أن ينفذوا إلى الآفاق بلغاتهم المحلية ، إذن فليس للسان دور في رقي أمة أو تخلفها ، وبين أيدينا أمثلة يصعب حصرها في تفوق الدول التي أشاعت المعرفة بلغاتها الوطنية ، و(إنك لاتجد بين أمم العالم صغيرها وكبيرها ، أمة تقدم العلم لأبنائها بغير لغتهم سوى في عالمنا العربي المتعثر ؛ فلا صعوبة كتابة اللغة اليابانية أو الصينية ، ولاصغر حجم بعض دول أوروبا ، ولا فقر بعض دول آسيا ، ولاشج مصطلحات اللغة التركية ، ولا موات اللغة العبرية ، حالت دون أن تكون اللغة القومية هي لغة التدريس في تلك البلاد.)⁽²⁴⁾

أما واقع الترجمة في وطننا العربي فهو كواقع العربية اليوم والذي لايسر ، يقول الدكتور نبيل على متسائلاً : (وماتلك الأرقام الهزيلة للغاية لإنتاجنا في مجال الترجمة؟ مع كوننا مستوردين للعلم أصلاً ، لمنتجين له ، فإجمالى ما يترجمه العالم العربي سنوياً في حدود 300 كتاب ، أقل من خمس ماترجمه اليونان ، والإجمالى التراكمى لكل ماترجمناه منذ عصر المأمون إلى الآن في حدود عشرة آلاف كتاب وهو يساوي ما تترجمه إسبانيا في عام واحد.)⁽²⁵⁾

وقد أوردت قناة الجزيرة (أن ماترجم العام الماضى فقط من اللغات الأجنبية إلى الإسبانية يعادل ماترجم في الخمسين سنة الماضية من اللغات الأجنبية إلى العربية.)⁽²⁶⁾ وهنالك مثالان لا يخلوان من طرفة بيبنان ما نحن بصددده وهما:⁽²⁷⁾

- 1 / تركيا التى مضى على نبذها الحرف العربى لأكثر من قرن ، ولم تزل تركيا هي هي ، بل إنها لم تقبل عضواً في الاتحاد الأوروبي.
- 2 / أن مصر لم تنتج إلا 1% مما تنتجه استراليا من البحوث الطبية ، علماً أن مصر تدرس الطب بالإنجليزية منذ نحو 100 سنة.

وهنالك أيضاً بعض التجارب العملية التى أفادنا بها بعض المختصين في هذا المجال ، إنه الدكتور محمد الخياط . الأستاذ بكلية الطب بجامعة دمشق . يروى عصاره تجاربه بقوله : (لقد علّمت العلوم في السنة الإعدادية للطب باللغة العربية ، سنة واحدة ، في كلية العلوم بالجامعة الأردنية ، فانخفض عدد الراسبين من خمسة وثلاثين بالمائة إلى ثلاثة بالمائة ، وارتفعت معدلات الناجحين ...)⁽²⁸⁾ ، وقد اشارت بعض الاستطلاعات إلى نتائج تعضد ما نحن بصددده ، فقد كشف الدكتور عيسى برهومة في إحدى بحوثه القيمة عن آراء بعض الأساتذة وهي:⁽²⁹⁾

- 1 / انخفاض نسبة الرسوب عند دراسة المقرر باللغة العربية.

2 / ارتفاع نسبة الاستيعاب لدى الطلاب عند دراسة المقرر باللغة العربية.

3 / ازدياد حجم المادة المدروسة .

4 / زيادة فعالية الدرس الصفّي بازدياد مشاركة الطلبة وتفاعلهم.

5 / ازدياد نسبة الأسئلة التي يسألها الطلبة.

6 / تحسن ملحوظ في مهارات الكتابة العلمية بالعربية .

إن الحديث عن تعريب التعليم كبير ومتشعب ويستمد أهميته من أهمية العربية نفسها، التي تعني الهوية وتحقيق الذات ومجابهة المدلهمات التي تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، انظروا كيف نجحت قوة الضغط الجماهيرية التي أحالت لغة التدريس بمعهد التكنولوجيا في حيفا من اللغة الألمانية إلى العبرية، دونما الاستعانة بمراسيم حكومية، أو بدساتير تشريعية، أو بسطوة قانونية !.

لذا فإن التعريب ليس ترفاً وإنما هو ضرورة دينية وحضارية ولغوية .

آفاق وطول:

تحديات العربية لا تكاد تنقضي، ولكن إذا قويت العزيمة وشمر عن ساعد الجِد، كل بقدر الاستطاعة سنجتاز هذا الامتحان على أتم ما يكون، وفوق ذلك يطمح الباحث أن يغير هذا الواقع المرير بحسب وسعه ويضع الحلول المناسبة ويجب عن تلكم الأسئلة ويسهم مع أولى الغير الحاديين على إزالة هذا العوار الذي اعترى جسد العربية وفيما يلي تلخيص، لأهم العوامل التي تساهم في حل هذه المعضلة التي كادت أن تكون (قضية ولا أبا حسن لها) :

1 / الاعتزاز بهويتنا العربية :

إذا أردنا أن نهض من كبوتنا هذه فأول ما يجب علينا أن نعتز بهويتنا العربية، وأن نخلق الثقة في نفوس أبنائنا بأنها لغة قادرة على أن تحوز قصب السبق في الميادين العلمية فلها من الخصائص والمزايا ما يمكنها أن تواكب مقتضيات العصر، وليس أدلّ على عالمية العربية من تطويعها للحاسوب وقبولها ترجمته بكل سهولة ويسر .

ومما يحمد لبعض الدول العربية في هذا الصدد :

أ / نجاح سوريا . أقال الله عثرتها . في تعريب العلوم كله في مدارسها وجامعاتها، وهو جهد عظيم مشكور شارك فيه مجمع اللغة العربية بدمشق، وأثبتت التجربة السورية نجاحاً طيباً يستحق الاقتداء به .

ب / أن الديوان الأميري بسلطنة عمان به قسم خاص يتابع لغة الصحافة ويرسل

مذكرات تنبيه إلى كل صحيفة تقع منها أخطاء لغوية .

ج / أن إمارة دبي تفرض غرامة مالية لأصحاب اللافتات التي تحتوى على الأخطاء اللغوية.

2 / تطوير العملية التعليمية:

لا يمكن مواجهة تحديات اللغة العربية بمعزل عن التحديات العامة التي يواجهها التعليم فهو من القضايا الشائكة والحساسة ، فلا بد إذن من وضع حلول شاملة بقدر التحديات المتجددة لاسيما من قبل الحكومات العربية التي يؤرق مضجعها مثل هذه الموضوعات، ويرى الباحث أن التعليم المطلوب هو التعليم الذى يهتم كثيراً بالموهوبين والناخبين، و(المستقبل النهضوى للبلاد رهين بالتعليم المتميز الذى تناله القلة المبدعة، لأن التاريخ قد أثبت أن التقدم الحضارى دائماً تصنعه الصفوة الموهوبة ...) (30). ولا يمكن إصلاح التعليم ما لم يتم الإنفاق عليه بسخاء، واليوم المعلم الألماني مثلاً يتقاضى راتباً أكبر من الطبيب والمهندس ، و (دولة إسرائيل مثلاً تخصص 37% من الميزانية العامة للبحث العلمى فقط ، ودولة قطر بدأت التعليم من حيث وصل إليه فى الدول المتقدمة ، فهي اليوم ومعها دولة الإمارات العربية المتحدة ودولة تونس، تعد ضمن أفضل ثلاثين دولة فى العالم فى مجال التعليم والإدارة المدرسية وتدريب وتطوير المعلم والمناهج والبيئة المدرسية.) (31)

أما سبل الخروج من أزمة اللغة لعربية فى إطار العملية التعليمية فيمكن تناولها فى النقاط التالية:

1 / إعادة النظر فى مناهجنا الدراسية: ينبغى علينا أن نعيد النظر فى مناهجنا ، لاسيما مناهج اللغة العربية؛ فلذا يتحتم علينا ، للخروج من هذه الأزمة ، الإعداد الجيد لمدرسى اللغة العربية وتوجيه أكثرهم كفاءة للمرحلة الابتدائية ؛ لأنها أهم المراحل فى تعلم اللغة واكتسابها، وابتكار طرائق تدريس جديدة توائم اللغة العربية والإفادة من المفاهيم اللسانية كالكفاية اللغوية والإفادة من التقنيات الحديثة فى تعليم العربية لأبنائها وللناطقين بغيرها.

2 / تعليم العربية لأغراض خاصة: لعل هذه الفكرة، أى تدريس اللغة لأغراض خاصة، انماز بها أصحاب اللغات الأعجمية ، وعلى وجه الخصوص الإنجليز ، فهذا يعود على العربية بالنفع ، ولكن يجب مراعاة نقطة مهمة عند تطبيق هذه الفكرة ، ألا وهى وجوب أن تكون للمتعليم كفاية لغوية تسبق تطبيق هذه الفكرة .

3 / توجيه الإعلام لخدمة العربية: تعد وسائل الإعلام وسيلة هامة من وسائل نشر المعرفة ، وهنالك ثمة تجارب ناجحة لفضائيات عربية فى مجال الإعلام التربوى ، أسهمت بشكل فعال فى تطوير اللغة العربية فى كافة الصُعد كالفصائيات الدينية ، (قنوات :

أقرأ، المجد ، طيبة) وغيرها ، وقد أشار تقرير التنمية الإنسانية العربية 2003 إلى أن الإعلام العربي قد حقق نجاحات طيبة مع انتفاضة الأقصى وبعد أحداث الحادي عشر من أيلول، ولاسيما قناة الجزيرة التي كانت مصدراً موثقاً لنقل الأحداث من فورها، ولعل أهم ماميز ذلك الخطاب الإعلامي اعتماده اللغة العربية الفصحى.⁽³²⁾

4 / التخطيط اللغوي ووضع سياسة لغوية: ويتبلور ذلك في اتخاذ نظرة تنظيمية مستقبلية مبنية على تصور نظري مستعينة بدعم المسؤولين واصحاب القرارات ومن أمثلة التخطيط اللغوي التي تم القيام بها في عدد من اللغات:⁽³³⁾

أ/ تغذية اللغة بالمصطلحات اللازمة للعلوم والتقنيات والاقتصاد والسياسة وغيرها .
ب/ توجيه لغة الإعلام بما يضمن صحتها وسلامتها ، وفي بعض البلاد مثل استراليا قامت شبكة الإذاعة المحلية بتشكيل لجنة لتحديد الصيغ الملائمة للاستخدام العام .

5 / حوسبة الترجمة: لعل قضايا الترجمة والتعريب والمصطلح من أكثر الموضوعات التي أثارت جدلاً واسعاً في أوساط العلماء والمثقفين ، ويناشد الباحث بأن نسلك طريق التعريب الكامل لمناهجنا ؛ حفاظاً على خصوصياتنا الثقافية ، ولنجاح تلك التجربة في كثير من الدول التي أنتجت المعرفة ونشرتها بلغاتها الوطنية كاليابان والصين واسرائيل وغيرها ، وقد أجريت بحوث معاصرة على ثلاثين جامعة سودانية كلها أبدت موافقتها على التعريب بنسب متفاوتة ⁽³⁴⁾ و يعتقد الباحث، إن واقعنا جد مؤسف بسبب تخلفنا عن الركب لكوننا مستوردين للعلم ، لمنتجين له ، بل حتى إن هذا الاستيراد في غاية الضعف ، إذا علمنا ، أن ماترجمناه منذ عصر المأمون إلى الآن لايزيد عن عشرة آلاف كتاب وهو يساوي ماتترجمه إسبانيا في عام واحد ، وإذا علمنا أيضاً (أن ماترجم العام الماضي من اللغات الأجنبية إلى الإسبانية ، يعادل ماترجم في الخمسين سنة الماضية من اللغات الأجنبية إلى العربية).⁽³⁵⁾

هذا ويتفاءل الباحث بتحسن مستويات الترجمة في وطننا العربي ، لاسيما في ظل جهود مكتب تنسيق التعريب بالرباط التابع لجامعة الدول العربية ، والمجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون بالكويت ، وهو .بحق. الأكثر حضوراً وفاعلية وسلسلة عالم المعرفة خير دليل على ذلك ، ومما يسير أيضاً في هذا الاتجاه ، اصدار الهيئة العليا للتعريب بالسودان ، سلسلة من المعاجم العلمية الموحدة في الكيمياء والفيزياء والهندسة والرياضيات وعلوم الأرض والحاسوب الذي حوى ثمانية آلاف مصطلح وهو بهذا يعد من أوسع القواميس الحاسوبية الموجودة في المكتبة العربية وقد وضع في عام 1998 م .

6/ دراسة علم المصطلح: في إطار التثقيف التعريبي، ينبغي الاسترشاد بتوصيات منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة المتمثلة في:⁽³⁶⁾

- وضع مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد.

- تفضيل الكلمات العربية الفصيحة المتواترة على الكلمات المعربة .

- ضرورة وجود مناسبة أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي .

7 / مواجهة العولمة : العولمة كما يتبادر إلى ذهن الباحث .هي: محو الثقافات المختلفة لصالح قوى الاستكبار ، أو هي باختصار أمركة الأشياء ، وبالتالي لتحقيق هذا الهدف ، استعانت أمريكا بسلاحين فتاكين هما اللغة والإعلام ، فاللغة وعاء الثقافة ، فلذا حرص مروجو العولمة على نشر اللغة الإنجليزية من أوسع الأبواب وهو الإعلام ، فحسبنا أن نستدل على ذلك ، أن الإنجليزية تغطي ما يقرب من 80% من المواد المعروضة على شبكة الإنترنت ، وفي ألمانيا مثلاً أن 98% من الأبحاث العلمية في الفيزياء تنشر بالإنجليزية⁽³⁷⁾ ، وقد فطنت الكثير من الدول لذلك ، حتى الدول الغربية ، ففرنسا مثلاً ، فرضت لغتها في المدارس وأصدرت تشريعات وقائية ، منها ألا تزيد نسبة البرامج الأجنبية في أجهزة الإعلام عن 30% ، وأصدرت القوانين التي تنص على استخدام الفرنسية في كافة الصُّعَد⁽³⁸⁾ .

وكان مما أعلنه غاندى 1920 (أن الأمة قد عانت كثيراً من استخدام اللغة الإنجليزية مما حرم الأجيال من اكتساب الخبرات المتراكمة بلغة وطنية)⁽³⁹⁾ وهذا لا يعني في نظر الباحث الهروب من طوفان العولمة فهي صارت اليوم كقول أخي العرب:⁽⁴⁰⁾

فإنك كالليل الذي هو مدركي ❖ وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

لذا فالأجدي والأنفع ، أن نجابهها فنأخذ سمينها ونذر غنمها وبذا نخلص إلى مقاومة العولمة من داخلها . ولعل هذا مانعها المفكر التونسي عبدالسلام المسدي بقوله: (فالاعتراف الثقافي كمدخل في حوار مع الآخر ، هو المدخل الطبيعي للحوار معه ، وهو المسوغ القدير لتزكية فعله إذا أنصف واعتدل وللاعتراض عليه ، إن شط وحاد عن الجادة.)⁽⁴¹⁾

ولكن يمكننا أن نتفائل بمستقبل مشرف ينتظر العربية وليس هذا على سبيل المبالغة ، والدليل على ذلك لا يكاد يحصر ، من ذلك مثلاً:

أ/ أن الله تكفل بحفظها ، لأنها لغة القرآن الذي تتلى آياته إلى قيام الساعة ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾⁽⁴²⁾

ب / لم تخسر العربية شيئاً عندما تخلت ماليزيا وتركيا عن الحروف العربية واستأنست باللاتينية ، وقد حدث العكس في لغات أخرى حيث اعتمدت على الحروف العربية في رسم الكلمات كالأردية والفارسية ، وأما ما اقترض من العربية ، حتى إلى اللغات التي ليست من أرومتها ، فأمر لا يكاد يحصر ، وقد يخرجنا عن دائرة البحث إذا استقصينا هذا ، وأسأله

التوفيق في الأيام القليلة القادمة ، أن أستكشف هذا الموضوع في بحث آخر .
ج / لم يزل وضع العربية بخير مادامت خطبنا في مناسباتنا الإسلامية وإعلامنا ودروسنا كلها تلهج بالعربية الفصيحة ولم يشتك أمة واحد من عدم فهمه واستيعابه لما يدور حوله وما يسمعه بلسان عربي غير ذي عوج ولله الحمد والامتنان .

الخاتمة :

حاول الباحث في الأسطر السابقة أن يبين مدى مهددات الأمن الثقافي خاصة فيما يتعلق بالهوية العربية الإسلامية ولما كانت اللغة هي المنطلق المعني بهذا البحث كان لابد من كشف النقاب عن تلك المضاعفات التي يزرع تحت نيرها واقع الأمة العربية والإسلامية من خلال الهزيمة النفسية التي ما زلنا نعاني منها ومن خلال اضمحلال دور مؤسسات التعليم والإعلام وغيرهما في خدمة قضايا اللغة العربية ، لكن ما يسر النفس استمرار الغُير على إيجاد الحلول لواقع العربية من خلال مواجهة العولمة والدعوة إلى الاحتفاظ بالخصوصية والذاتية على الرغم من قوة رياح الثقافة الغربية التي عمت أرجاء المعمورة وصارت كليل النابغة وإن خلنا أن المنتأى عنها واسعا ، والحديث عن هذا الموضوع ذو شجون ، والمقام قد يطول ؛ فلذا يجدر بالباحث أن يختم حديثه ببعض النتائج التي تتمثل في :

- أن الذاتية هي الشرط الحتمي لتقدم الأفراد والجماعات والأمة ، لأنها التي تحرك الإرادة الجماعية وتشكل أساسها .
- صمود العربية أمام العواصف العاتية التي مرت بها عبر التاريخ ، بدعاوى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب
- احتمال تزايد الوزن الحضاري للغة العربية في المستقبل المنظور فضلاً عن المستقبل البعيد .
- لم يزل وضع العربية بخير مادامت خطبنا في مناسباتنا الإسلامية وإعلامنا ودروسنا كلها تلهج بالعربية الفصيحة .
- والتوصيات كثيرة لكن يمكن أن تختزل في إقامة مجمع لغوي عربي موحد تكون له سلطة التشريع اللغوي ، وتفعيل دور الملحقيات الثقافية ببلاد المهجر .

القوامش :

- 94

- 24 / عبدالرحمن بودرع وآخران ، اللغة وبناء الذات ، كتاب الأمة ، العدد 101 ، وزارة الأوقاف والشؤون القومية ، قطر 2004 م ، ص 121 .
- 25 / نبيل على ، (مصدر سابق) ص 36 .
- 26 / موقع قناة الجزيرة بالشابكة ، www.aljazeera.net .
- 27 / العناتي ، (مصدر سابق) ، ص 151 .
- 28 / العناتي ، (مصدر سابق) ، ص 151 .
- 29 / محمد هيثم الخياط ، في سبيل العربية ، ط ، دار الوفاء ، 1997 م / ص 37 .
- 30 / زكريا بشير إمام ، في مواجهة العولمة ، مركز قاسم ، الخرطوم ، ط 2000 م ص 146
- 31 / صالح الطاهر أحمد ، تدهور التعليم ثم ماذا بعد ؟ ، جريدة الصحافة السودانية ، 21 فبراير 2012 ، ص 9 .
- 32 / المسدي ، (مصدر سابق)، ص: 390.
- 33 / أحمد مختار ، (مصدر سابق) ، ص: 58 .
- 34 / عبدالله الترابي ، جدل التأصيل والمعاصرة : جريدة ، (الصحافة) السودانية ، 21 فبراير 2012 م ، ص 7 .
- 35 / موقع قناة الجزيرة بالشابكة .
- 36 / على القريشي ، توطين العلوم في الجامعات العربية رؤية ومشروع ، كتاب الأمة ، العدد 125 ، جمادى الأولى 1429 ، السنة الثامنة والعشرون ، ط 1 ، قطر ، ص : 63 .
- 37 / نبيل على وناديا حجازي ، الفجوة الرقمية ، عرض ، مصطفى عاشور ، الشابكة .
- 38 / على أحمد محمد بابكر ، حوار الثقافة العربية مع العولمة المطروحة ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الخرطوم ، العدد السادس 1426 . 2005 ص : 43 .
- 39 / أحمد مختار ، (مصدر سابق) ص: 65 .
- 40 / البيت للنايعة الديباني ، يعتذر فيه للنعمان ، وهو من عينيته الشهيرة التي مطلعها :
عفا ذو حسى من فرتنى فالفوارع فجنبا أريك فالتلاع الدوافع
- 41 / المسدي ، نحو وعى ثقافى جديد ، كتاب دنى الثقافية (34) ، مارس 2010 ، ص: 76 .
- 42 / الحجر ، 9 .

